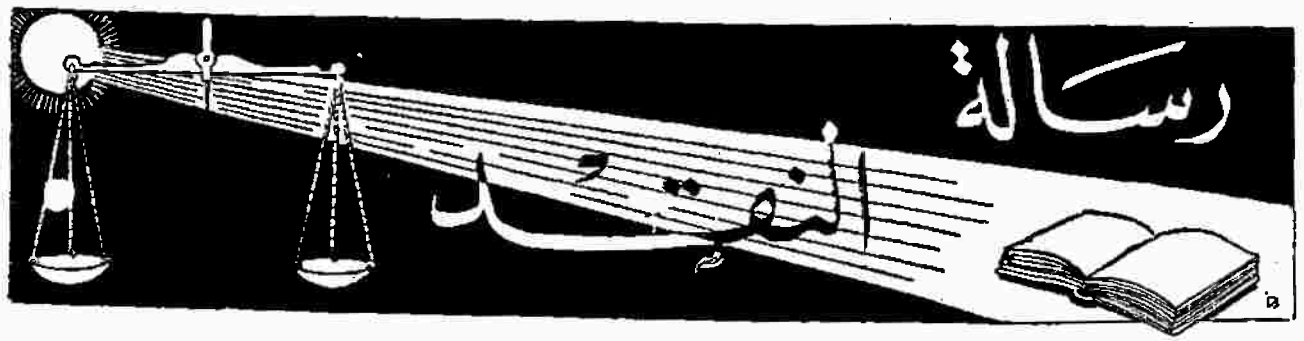

فى سبيل العربية

كتاب البخلاء

للأستاذ محمود مصطفى

— ٢ —

ذكرنا فى المقال السابق مظهرين من مظاهر عمل الأستاذين الفاضلين العوامرى بك والجارم بك فى شرحهما لهذا الكتاب ، وهى العناية بالإعراب ، والتطبيق على علوم البلاغة .

واليوم نذكر مظهراً ثالثاً هو الإكثار من ذكر أسماء المراجع اللغوية ، فما تفتأ ترى اسم اللسان والقاموس والصحاح وشرح القاموس والنهاية و . . . و . . . من غير حاجة إلى ذكر شىء من ذلك ؛ لأن العادة جرت ألا يخص اسم مرجع بالذكر إلا إذا كان قد انفرد من بين بقية المراجع بإيراد ما نستدل عليه أو نحتج به ، فأما الأمور التى اشتركت فيها كل المراجع أو أغلبها فلا نرى داعياً للنص على المرجع إلا أن يكون ذلك إدلالاً بمعرفة اسم الكتاب أو حيازته . ونكتفى من الدلالة على هذا المظهر فى عملهما بذكر مثلين وقعا فى صفحة واحدة هى ص ٢٩ ، قالا حفظهما الله :

(٨) الكلوح (بضم الكاف) تكشر فى عبوس . وقد كلح يكلح كنع يمنع اه . من اللسان

(٩) قال فى القاموس : قطب يقطب قطبا من باب ضرب ، وقطوباً بضم القاف فهو قاطب وقطوب : زوى مابين عينيه . اه

والذى ذكرا أنه من اللسان تراه فى القاموس : قال : « كلح كنع كلوحا وكلاحا بضمهما تكشر فى عبوس . والذى ذكرا أنه من القاموس تراه فى كل كتاب غيره . قال فى المصباح : « قطب بين عينيه قطبا من باب ضرب جمع . . . » ويتصل بأمر المرجع اللغوية مسألة أخرى وهى الوقوف عند عبارات هذه المعاجم لا تزحزح معه ولا ريم منه مهما أدى ذلك إلى الإيهام أو الاشتباه بألفاظ لا يليق فى ذوق الشارحين أن تقع عليها أعين الطلاب والطالبات . وذلك كقولها فى حاشية ص ٦٤ : الختن من كان من قبل (بكسر ففتح) المرأة كالأب والأخ والعم والخال .

الجغرافية التى أطلقها علماء الفلك من أبناء الغرب على جبال القمر ، كما أطلقوا غيرها على سائر عوارضه السطحية . ومما يلفت الأنظار فى هذه التسميات التى تُعَدُّ بالمئات ، تلك الطائفةُ التى اتخذت لها أسماء تعود إلى مشاهير التاريخ الشرقى ، بل العربى على الأخص . وهأنذا ذاكرها فيما يلى ، مع ما يقابلها بالأفرنجية نقلاً عن الكتابين المشار إليهما :

أبو الفدا	Abulféda
ألغ بك	Ulugh Beigh
البتانى	Albatagne
ثابت (بنى قرّة)	Thébit
الحسن (بن الهيثم)	Alhazen
الزرقالى (ابراهيم بن النقاش الطليطلى)	Arzachel
المأمون	Almamon
نصير الدين (الطوسى)	Nasireddin

ولا يخفى أن أغلبية هذه الشخصيات كانت ذات يد طولى فى علم الفلك وما يتصل به من العلوم الأخرى . فلا غرو أن يُخلَّد ذكرهم بهذه الطريقة العلمية الصامتة التى قلما يعلم بها أخلافهم اليوم . وهلاّ تُذكِّرنا هذه التسميات العربية بما يماثلها فى كوكبنا الأرضى ، حيث نجد مواقع عديدة سميت بأسماء مشاهير رجال العرب كجبل طارق وبلد الوليد والقاهرة والمدرسة المستنصرية وغيرها مما يطول سردها ويخرج بنا عما أردناه من هذه الكلمة . .

« بغداد »

كوركيس عواد

أيدرى القارئ لم اضطر الشارحان إلى تقييد كلمة قبل بكسر ففتح؟ ذلك لأنهما أرادا أن ينفيا شبهة قراءتها بضمتين فيقع المحظور الذى تتوقاه وزارة المعارف . ولكنى أقول إن هذا الضبط الذى قصد به لفت النظر والفكر عن شيء غير لائق كان أدل شيء على ذلك الشيء . فأى داع إلى التزام هذا اللفظ خصوصاً بعد أن تنبه الشارحان إلى ما فيه من خطر على الطلاب والطالبات ؟ لا ترى ذلك الداعى إلا وقوفهما عند ألفاظ المعاجم لا يريمان منها ولو قيد أنملة . وفى ألفاظ : جهة المرأة أو ناحية المرأة أو جانب المرأة ما يغنينا عن قولها بكسر ففتح بين قوسين .

ومن ذلك أيضاً قولها فى حاشية ص ١٧٦ : (٦) المذاكرة مفاعلة من الذكر (بكسر فسكون) وهما لم يقيدا المفاعلة بأنها من الذكر (بكسر فسكون) إلا احترازاً من مفاعلة أخرى يكون الذكر فيها بضبط آخر غير ما ذكرا ، وقد كان نفى هذه الشبهة أدعى إلى الوقوع فيها . فلا حول ولا قوة إلا بالله

ولا نترك هـذا المقام حتى نأتى فيه على أكثر ما لاحظنا من الجمود اللغوى لتكون تلك الملاحظات مجتمعة ، وبذلك نكون قد عدنا إلى التبويب الذى رأينا ألا نتبعه فى نقدنا هذا

من الوقوف عند ألفاظ المعاجم أن ترى الشارحين قد ألغيا عقلهما الحصيف ففرقا بين ما لا فرق فيه وعرفا بما لا تعريف به ، وظنا بعد ذلك أنهما قد أبليا عذراً فى الشرح وحققا ودققا إلى أبعد غايات التحقيق والتدقيق

وهاك فاسمع أيها القارئ أولها فى ص ١٧٦ أيضاً :

(١١) قمر فى كلامه تشدق وتكلم بأقصى قمر فمه وقيل تكلم بأقصى حلقه . لسان

وقبل أن تحتكم إلى الطبيب الشرعى أو الجراح العالم بتشريح الفم أؤكد وأشدد أنه لا فرق بين العبارتين وأنا أخالف مقدماً كل من يحاول إثبات فرق بين أقصى قمر الفم وأقصى الحلق .!!

كذلك تسمع قولها فى ص ١٦١ عند قول الجاحظ فيمن لم يتخذ بناء البيوت للاستقلال وآثر دفع السكنى بأجر « وأنه قد أمن من الحرق والغرق وميل أسطوان وانقصاف سهم واسترخاء أساس » فهما يقولان : (٦) السهم جائز السقف أو جائزته فإذا استفدنا نحن من تذكير لفظ جائز مرة وتأنيثه أخرى ، مادام المعنى قد صار أغمض مما كان ؟ فهل يعقل وقوع مثل هذا من عالمين فاضلين كالشارحين ؟ إنى أترك للقارئ الحكم على هذا العمل فالقول لا يتسع له

وأعجب ما فى عناية الشارحين باللغة أنهما حاولا أن يشرحا كل شيء حتى شرحا البدهى أو ما هو أوضح من البدهى . وقد تعجب من قولى أوضح من البدهى ! ولكن اسمع ، فهما فى ص ٧٣ يطلقان على كلمة أصبح بقولها :

(١) أصبح : دخل فى الصباح .!! وهـذه مسألة أخرى أثارها تفسير الشارحين لكلمة أصبح . هل نحن الذين ندخل فى الصباح أم الصباح هو الذى يدخل علينا ؟ وهل الصباح هو الواقف ونحن المتحركون ، أم هو المتحرك ونحن الجامدون !!!

ماذا يسمى القارئ هذه السناية بالصغائر ، وتفسير ما لا يحتاج إلى تفسير ، والإغضاء عما فى كتب السابقين من اضطراب ، من رجلين وكل إليهما أمر إصلاح العربية فى وزارة المعارف وفى مجمع اللغة ؟!

نعود بعد ذلك إلى تتبع سقطات الشرح بحسب ترتيب الكتاب فنقول :

فى ص ٢٧ يقول الجاحظ : « ولك فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة » فيضبط الشارحان كلمات : تبين وتعرف واستفادة بالكسر ، ولا يتركان هذا الضبط دون تنبيه على سببه حتى كان يصح أن نحمل الخطأ فيه على الطابع الذى نحمله فى كثير من الأحيان ما لا جناية له فيه ، حتى لقد اسودت أعضاؤه وتيابه من تحمل غلطاتنا كما اسود الحجر الأسود من مسح الناس ذنوبهم فيه

لم يترك الشارحان هذا الضبط الخاطئ من غير تعليق بل لقد علقا عليه بقولها : (٣) تبين بدل من أشياء . وأنا أربأ بكل قارئ عن أن أوجه إليه بيان الخطأ فى ذلك فهو أمر ظاهر لكل من به مسكة من نحوية ، ولكنى أوجه قولى فى ذلك إلى طلاب السنة الثالثة أو الرابعة من المدارس الابتدائية فأقول لهما إذا قلنا حضرنى ثلاثة رجال محمد وعلى ومحمود ، أليس محمد بدل بعض من لفظ ثلاثة لأنه بعضها ، وإذا ضممناه إلى أخويه كان المجموع هو مدلول «ثلاثة» فكيف يجوز الإبدال من لفظ أشياء فى جملة الجاحظ وهى بمثابة كلمة رجال فى جملتنا هذه الصغيرة ؟ ألم يقل النحاة إن البدل على نية تكرار العامل ، فإذا أبدلت من كلمة رجال كان تقدير الكلام حضرنى ثلاثة محمد وعلى ومحمود (بالإضافة) . فهل يسوغ هذا القول فى ذوق أو فهم ؟

هذه غلطة إذا ضبطها أحد المفتشين لعلم صب عليه غضبه وأعاده من الثانوى إلى الابتدائى وحرمه من العلاوة حين يجئ دوره فيها ، بل إذا وقع فيها تلميذ فى امتحان الابتدائية وكان نجاحه يتوقف على التسامح فيها لم ترض المفتش غيرته على العربية أن يتسامح فيها ورسب التلميذ من أجل ذلك فى الامتحان ، وربما كان رسوبه قضاء